سُورَةُ الأَنفَالِ

النزول: مدنية.

فضائل السورة:

عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «أُعطيتُ مكانَ التوراة السبعُ، وأُعطيتُ مكان الزَّبور المئِين، وأُعطيتُ مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلْتُ بالمفصل». (أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي في الشعب، وقال الشيخ الألباني: «الحديث بمجموع طرقه صحيح، والله أعلم». (السلسلة الصحيحة ٣/ ٤٦٩).

والسبع الطوال: من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الأعراف فهذه ست سور، واختلفوا في السابعة أهي الأنفال وبراءة معاً؛ لعدم الفصل بينهما بالبسملة، بجعل الأنفال وبراءة بمنزلة سورة واحدة، أم هي سورة الأنفال فقط، أم سورة يونس؟ وعلى جميع الأقوال فسورةُ الأنفال داخلة ضمن السبع.

المقاصد:

١ ـ بيان أحكام الغنائم.

٢ ـ تفصيل أسباب النصر.

٣ ـ بيان أحكام التعامل مع الكافرين في السلم والحرب.

٤ ـ بيان مِنَّةِ الله سبحانه وتعالى في تأليفه بين قلوب المؤمنين.

٥ ـ أهمية أحكام موالاة المسلمين للمسلمين الذين هاجروا، والذين لم يُهاجِرُوا، وعدم موالاتهم للذين كفروا.

٦ ـ الحديث عن بعض تفاصيلِ غزوة بدر، وكيف نصر الله تعالى المؤمنين، وأيَّدهم على الكافرين؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

١ ـ سبب النزول:

أخرج مسلم عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: نزلت فيَّ أربع آيات، أصبتُ سيفاً فأتى به النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله! نَفِّلْنِيه. فقال: «ضَعْه» ثم قام. فقال له النبي ﷺ: «ضَعْه من حيث أَخَذْتَه»، ثم قام فقال: نَفِّلْنِيه يا رسول الله! فقال: «ضَعْه» فقام فقال: يا رسول الله! نَفِّلْنِيه. أأُجْعَلُ كمَنْ لا غَناء له؟ فقال له النبي ﷺ: «ضَعْه من حيث أَخَذْتَه» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾.

(صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٧ ـ ١٣٦٨ برقم ١٧٤٨ ـ كتاب الجهاد والسير، باب الأنفال).

التفسير:

يسألك بعض أصحابك ـ يا محمد ـ عن غنائم بدر كيف تُقْسَمُ؟ ومَن المستحق لها؟ فقل لهم: الغنائم لله يَحكم فيها بحكمه سبحانه، وللرسول ﷺ فهو الذي يقسمها على حسب حكم الله وأمره فيها. ثم حَثَّهم: أن اتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأَصْلِحُوا ما بينكم من

التشاحن والتقاطع والتدابر؛ بالتوادِّ والتحابِّ والتواصل، والتزِمُوا طاعة الله ورسوله في كلِّ أموركم، إن كنتم مُصَدِّقين بالله تعالى وبرسوله ﷺ.

٢ ـ ثم بَيَّنَ تعالى صفات المؤمنين الصادقين: أنَّهم إذا ذُكِر اسم الله، وذُكِرَتْ صفاتُه أمامهم، خافت قلوبهم، استعظاماً لجلاله، وحَذَراً من عقابه، ورغبةً في ثوابه؛ وذلك لمعرفتهم بالله تعالى حَقَّ المعرفة، وتقديرهم لله حَقَّ قَدْره.

والصفة الثانية من صفات المؤمنين: أنهم إذا قُرِئَتْ عليهم آيات الله زادتهم قوةً في التصديق، ورسوخاً في اليقين، ومبادرةً إلى الأعمال الصالحة، وسَعَةً في العلم والمعرفة. وهذا من أهمِّ الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه.

أما الصفة الثالثة فهي: أنهم يعتمدون على ربهم الذي خلقهم بقدرته، ورَبَّاهم بنعمته، فلا يرجون سواه، ولا يَلُوذون إلا بجَنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٣ ـ أما الصفة الرابعة فهي: أنَّهم يُؤَدُّون الصلاة في مواقيتها، مستوفيةً لأركانها وشروطها وسننها وآدابها وخشوعها. وكانت الصفة الخامسة أنَّهم يبذلون أموالهم للفقراء والمحتاجين بسماحة نفس، وسخاء يد، استجابةً لتعاليم ربِّهم.

٤ ـ ثم مدح سبحانه أصحاب هذه الصفات، بأنَّهم هم المؤمنون إيماناً حقاً، وسيُجْزَون لذلك دَرَجاتٍ عالية، ومكانة سامية عند رَبِّهم. وهذا فيه مزيد تشريف لهم، ولطف بهم، وإيذان بأنَّ ما وعدهم به مُتَيَقَّنُ الوقوع. ولهؤلاء المؤمنون مَغْفِرَةٌ شاملة لما فرط منهم من ذنوبٍ أو تقصير، ولهم كذلك أعظم الرزق وأفضله في الجنة، يجعلهم يَحْيَون فيها حياة طيبة لا لَغْوٌ فِيها ولا تَأْثِيمٌ.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الإجابة عن سؤال الصحابة عن الغنائم، تربيةٌ حكيمة لهم ـ وهم في أول لقاء لهم مع أعدائهم ـ حتى يجعلوا جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله. أما الغنائم والأسلاب وأعراض الدنيا التي تأتيهم من وراء جهادهم،

فعليهم ألَّا يجعلوها ضمن غايتهم السامية من جهادهم، وأن يُفَوِّضوا الأمر فيها لله ورسوله ﷺ عن إذعانٍ وتسليم.

٢ ـ كَرَّرَ سبحانه لفظ الجلالة في الآية الأولى ثلاث مرات؛ لتربية المهابة في القلوب، وتعليل الحكم؛ حتى تقبله النفوس بإذعان وتسليم.

٣ ـ قرن الله بينه وبين رسوله مرتين؛ لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه، والإيذان بأنَّ طاعتَه ﷺ طاعة لله تعالى، ومخالفته مخالفة لأمر الله تعالى.

٤ ـ في توسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة، إظهارٌ لكمال العناية بالإصلاح، وليندرجَ الأمرُ به بعينه تحت الأمر بالطاعة.

٥ ـ تَقَدَّمَتْ أداة الحصر (إنما) عند ذكر صفات المؤمنين؛ للإشعار بأنَّ مَنْ هذه صفاتُهم هم المؤمنون، الصادقون في إيمانهم وإخلاصهم، أما غيرهم ممَّنْ لم تتوافر فيه هذه الصفات، فأمْرُهم غيرُ أَمْرِهم، وجزاؤهم غير جزائهم.

٦ ـ صفات المؤمنين المذكورة جمعت بين العبادات القلبية والبدنية والمالية، ولا شك أنَّها متى تَمَكَّنَتْ في النفس، كان صاحبها أهلاً لمحبة الله ورضوانه.

٧ ـ التوكل على الله جِماع الإيمان، وهو لا ينافي الأخذ بالأسباب التي شرعها سبحانه، فالمؤمن يباشر الأسباب التي شرعها الله لبلوغ الأهداف مباشرة سليمة من غير أن يتعلَّق قلبه بها، تاركاً النتائج لله يُسَيِّرها كيف يشاء.

٨ ـ في وصف الرزق الذي أعَدَّه لهم بالكرم زيادة في إدخال السرور على قلوبهم؛ لأنَّ لفظ الكريم دالٌّ عند العرب على بلوغ الموصوف به غاية الحسن والقَدْرِ في بابه.

٩ ـ للإيمان حقيقة ودلائل يسعى المؤمن لتحقيقها في تحقيقها، وليس دعوة ولا كلمات وأمنيات.

١٠ ـ إصلاح ذات البَيْن بين المؤمنين له أولوية وأهمية؛ لأنَّه يحفظ الصف المسلم من المشاحنات.

١١ ـ منهج التربية القرآنية منهج واقعي عملي، فعلى الدعاة إلى الله ﷻ أن يُحْسِنُوا التعامل مع آيات القرآن الكريم، ويتفاعلوا معها، ويَقيسوا أنفسهم عليها.

١٢ ـ في الإشارة بالبعيد عن القريب في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لعُلُوِّ رتبتهم، وبُعْدِ منزلتهم في الشرف.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

التفسير:

٥ ـ يُبَيِّن الله تعالى لنبيه ﷺ أنَّ حال بعض أهل بدر في كراهتهم تقسيمَك الغنائم بالسويَّة، مثل حال بعضهم في كراهة الخروج معك للقتال، مع ما في هذه القسمة والقتال من خير وبركة، فالله تعالى أمر نبيَّه محمداً ﷺ بالخروج إلى المشركين في بدر موافِقٌ للمصلحة، في الوقت الذي كَرِهَ فريق من المؤمنين ذلك الخروج. فقد حدث فيه أمران يَدُلَّان على شيء من عدم الرضا من فريق من الصحابة، ثم أعقبهما الرضا والإذعان والتسليم لحكم الله ورسوله، **فالأول**: أن فريقاً من الصحابة كانوا يرون أن قسمة الغنائم بالسَّوِيَّة فيها إجحاف بحَقِّهم، لأنَّهم الذين قاموا بالنصيب الأوفر في القتال، وأنَّ غيرهم لم يكن له بلاؤهم، فأصلح الله بينهم، ورَدَّهم إلى حالة الرضا والصفاء.

والأمر الثاني: أنَّ جماعة منهم قبل المعركة كرهوا قتال قريش بعد نجاة العِير التي خرجوا من أجل الحصول عليها؛ إذ خرجوا بدون استعداد للقتال، لا من حيث العددُ، ولا من حيث العُدَّة، وما كان من مَيْلٍ للغنائم، أو نُفْرَةٍ للقتال، فهو ممَّا لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يقال: إنَّه لا يليق بمقام الصحابة، ولكنهم سرعان ما استجابوا لما نصحهم به رسولهم ﷺ من وجوب قتال قريش. فشبَّه اللهُ حالَهم هذا بحالهم في مسألة الغنيمة، وهذا أكمل بيان، وأوجز لفظ.

٦ ـ ثم يقول الله تعالى لنبيه مستنكراً ما وقع من كراهية بعض الصحابة

القتال: إنَّ بعض أصحابك يا محمد ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في أمر القتال، بأنْ قالوا: ما كان خروجنا إلا للعِير، ولو أَخْبَرْتَنا بالقتال لأعددنا العُدَّة له. وهذا الجدال كان ﴿فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ بإخبارك إياهم بأن النصر سيكون حليفهم، وأنَّه لا مَفَرَّ لهم من لقاء قريش، تحقيقاً لوعد الله الذي وعد بإحدى الطائفتين. وهذا فيه زيادة في لومهم، وبيانٌ لثمرة الإذعان لأمر الله ورسوله ﷺ، وإن لم تظهر الحكمة أول الأمر، وصَوَّرهم أبلغ تصوير، حتى إنَّهم لَيكرهون القتال كراهة مَنْ يساق إلى الموت، وهو ناظر إلى أسبابه، ومُشاهِدٌ لموجباته. وفي هذا تصوير معجز لِما استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال، بسبب قِلَّةِ عَدَدِهم وعُدَدِهم.

٧ ـ ٨ ـ ثم بَيَّنَ سبحانه جانباً من مظاهر فَضْلِه على المؤمنين، مع جَزَعِ بعضهم من قتال عدوِّه وعدوِّهم، وإيثارهم العِيرَ على النفير: اذكروا ـ أيها المؤمنون ـ وقت أنْ وَعَدَكم الله تعالى على لسان رسوله بأن ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾: العِير أو النفير هي لكم، تظفرون بها، وتتصرفون فيها تَصَرُّفَ المالك في ملكه، وأنتم تحبون أن تكون لكم طائفة العير التي لا قتالَ فيها يُذكر، على طائفة النفير التي تحتاج منكم إلى قتال شديد، وإلى بَذْلٍ للمُهَجِ والأرواح. وفي هذه الجملة تعريض بهم، فقد كرهوا القتال، وأَحَبُّوا المال، وما هكذا يكون شأن المؤمنين بالغيب، الصادقين الواثقين بربهم. واستعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدَّة والحِدَّة بينهما.

ثم بَيَّنَ سبحانه الحكمة في اختيار ذات الشوكة لهم، ونصرتهم عليهم؛ ليثبتَ الدين الحق دين الإسلام، ويمحق الباطل، وهو ما عليه المشركون من كفر وطغيان، إذ اقتضت إرادة الله أن يُعِزَّ الدين الحق وهو دين الإسلام، وأن يمحق ما سواه، ولو كره المشركون ذلك؛ لأنَّ كراهيتهم لا وزن لها، ولا تعويل عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الجدال في الحق بعد تَبَيُّنِه أقبحُ من الجدال فيه قبل ظهوره.

٢ ـ في الآيات تقرير قاعدة: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

٣ ـ بيان رحمة الله بالإنسان، وبيان ضَعْفِه في رغبته في كلِّ ما لا كُلْفَةَ فيه ولا مشقة.

٤ ـ الهدف المنشود عند المؤمنين هو إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وهذا يحتاج إلى صبر وثبات.

٥ ـ إرادة الله للعبد خيرٌ من إرادته لنفسه، فعلى المؤمن أن يمضي في طريق الله ﷻ، لا يأبه بكل قوى الباطل التي تحاول أن تقطع عليه طريق دعوته.

٦ ـ النفس البشرية قد تتذبذب في مواجهة الخطر، ولكن البطولة هي المضيُّ لأمر الله ورسوله بعد التذبذب، والإقدام بعد التأرجح.

٧ ـ الله ﷻ تَكَفَّل بحِفْظِ دينه، ونصرة دعوته، وجعل المؤمنين محلّاً لتنفيذ قَدَره، وهو سبحانه بفضله ومِنَّته يعطيهم الأجر الجزيل؛ لكونهم ساروا في طريقه، وضَحَّوا في سبيله بالغالي والنفيس.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا
جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ
وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ
إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ
فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن
يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

هنا بيان من الله تعالى لبعض النِّعَمِ التي أنعم بها على المؤمنين في بدر، إذ أيَّدهم الله بها، فانتصروا.

٩ ـ فالله تعالى يقول لهم: يا أهل بدر اذكروا نعمة الله عليكم؛ لما قارب التقاؤكم بعدوِّكم بالَغْتُمْ في الطلب من الله ورجائه أن يُعِينَكم ويُنْصُرَكم، فكان رسول الله ﷺ يدعو وأنتم تؤمنون، ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾ الله لكم، وهذا من فضل الله عليكم ورحمته بكم. وكان من مظاهر تلك الاستجابة أن أخبركم على لسان نبيِّكم ﷺ بأني مُعينُكم وناصِرُكم بألف من الملائكة متتابعين، بعضهم على إثر بعض.

١٠ ـ وما جعل الله تعالى هذا الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم ـ أيها المؤمنون ـ بالنصر على أعدائكم، حتى تزدادوا ثقة به، ولا تقنطوا من النصر عند قلة أسبابه، ولتسكنَ بهذا الإمدادِ قلوبُكم، ويزول عنكم الخوف، وتهاجموا أعداءكم بنفوسٍ لا يُداخلها الإحجام أو التردُّد. فالنصر بالملائكة أو بغيرهم لا يكون إلا من عند الله وحده، والله تعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُغالِبه مُغالِبٌ، بل هو القهَّار الذي يخذل مَنْ بلغوا من الكثرة، وقوة العدد والآلة ما بلغوا. ﴿حَكِيمٌ﴾ إذ قَدَّر الأمور بأسبابها، ووَضَعَ الأشياء مواضعها.

١١ ـ ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثتكم أن ألقى عليكم النُّعاس، وغَشَّاكم به قبل التحامكم بأعدائكم، ليكون أماناً لقلوبكم، وراحة لأبدانكم، وبشارةَ خيرٍ لكم، فإن الخائف إذا خاف من عدوِّه فإنه لا يأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمِنُوا، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد، دليلاً على إزالة الخوف وحصول الأمن، فناموا واثقين بالله، مطمئنين لوعده، وأصبحوا على هِمَّةٍ ونشاط في لقاء عدوه وعدوهم.

ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثتكم أن أنزل عليكم الماء. ولنزول هذا الماء فوائد، فهو أولاً: تطهير حسي لكم، وثانياً: ليُزيل عنكم وسوسة الشيطان، بتخويفه إياكم من العطش، وبإلقائه في نفوسكم الظنون والأوهام. وهذا هو التطهير الباطني، وثالثاً: ليقوِّي ويَشُدَّ على القلوب بالثقة في نصر الله، وليُوَطِّنَها على الصبر والطمأنينة. ولا شك أنَّ وجود الماء في حَوزة المحاربين يزيدهم قوة على قوتهم، وثباتاً على ثباتهم، أمَّا فَقْدُه فإنه يؤدي إلى فقد الثقة والاطمئنان، بل وإلى الهزيمة المحققة.

ورابع هذه الفوائد التي نَجَمَتْ عن نزول الماء من السماء على المؤمنين:

تثبيت أقدامهم به حتى لا تسوخ في الرمال، وحتى يسهل المشي عليها، إذ من المعروف أن من العسير المشيَ على الرمال، فإذا ما نزلت عليها الأمطار ثبتت، وسَهُل السير فوقها من غير ضرر، وانطفأ غبارها.

١٢ ـ ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثة المؤمنين أن ذَكَّرهم بنعمة أخرى كان لها أثرها العظيم في نَصْرهم على المشركين، إذ قال: واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمدَّ بهم المسلمين في بدر ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بعَوني وتأييدي ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فقوَّوا قلوبهم، ومَلَؤُوا نفوسهم ثقةً بالنصر، وصَحِّحوا نياتهم في القتال حتى تكون غايتهم إعلاء كلمة الله. وذلك بالحمل على الثبات في موطن الحرب، والجِدِّ في مقاساة شدائد القتال، ومن ذلك ظهور بعضهم أحياناً في صورة بشرية يعرفونها.

ومن مظاهر استجابة الله لاستغاثتهم أنَّه بشَّر المؤمنين بشارة عظيمة: سأملأ قلوب الكافرين بالخوف والفزع منكم، وسأقذف فيها الهلع والجزع حتى تتمكنوا منهم.

ثم حثَّ الله المؤمنين على الأخذ بوسائل النصر، وما وَفَّقهم إليه منها، وطلب إليهم أن يهاجموا أعداءه وأعداءهم بقوة وغِلْظَة، وأن يضربوهم على أعناقهم ورؤوسهم، ومواضع نَحْرِهم، وعلى أطرافهم حتى يَشُلُّوا حركتهم، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم.

١٣ ـ ثم بَيَّن سبحانه السبب في هذا الفعل من ضَرْب هؤلاء الكفرة فوق الأعناق، وضَرْبِ كل بَنان منهم. إنهم فارقوا أمْرَ الله ورسوله وعَصَوهما، وأطاعوا أمرَ الشيطان، ومَنْ يخالف أمرَ الله وأمر رسوله ويفارق طاعتهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وذلك بما يحلُّ بأعدائه في الدنيا من النِّقَمِ، وفي الآخرة من الخلودِ في نار جهنم.

١٤ ـ ثم يُوَجِّه سبحانه خطابه على سبيل الالتفات لأولئك الذين شاقُّوا الله ورسوله، متوعِّداً إياهم بسوء المصير: بأنَّ ذلكم الذي نزل بكم ـ أيها الكافرون ـ من القتل والأَسْر في بدر، هو العقاب المناسب لطغيانكم وشرككم وعنادكم، فذوقوا آلامه في الدنيا، أما في الآخرة فلكم عذاب النار

الذي هو أشدُّ وأبقى من عذاب الدنيا، فذوقوا ما عَجَّل لكم مع ما أجَّل لكم في الآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ مشروعية الاستغاثة بالله تعالى، وهي عبادة محضة، فلا يصح أن يستغاث بغير الله تعالى.

٢ ـ مشاقة الله ورسوله كفرٌ يستوجب صاحبها عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

٣ ـ تعليم الله تعالى عباده كيف يقاتلون، ويضربون أعداءهم، وهذا شرف كبير للمؤمنين.

٤ ـ النصر بالملائكة أو بغيرهم لا يكون إلا من عند الله وحده، لأنَّه سبحانه هو الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، فالمؤثِّر الحقيقي في النصر هو الله وحده، والوسائل مهما عَظُمَتْ، والأسباب مهما كثرت، لا تؤدي إلى النتيجة المطلوبة، والغاية المرجوة، إلا إذا أيَّدَتْها إرادة الله، ورعايته.

٥ ـ تقديم الجار والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾؛ للاهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر.

٦ ـ في ظل الأزمات والشدائد يرسل الله تعالى لعباده ما يثبتهم، ويشدُّ على قلوبهم، فيرون في الشدة فَرَجاً وفتحاً كبيراً.

٧ ـ أعظم سنن النصر في الإسلام:

أ ـ أنَّ النصر من عند الله.

ب ـ وأنَّ النصر لا يتنزل إلا على المؤمنين.

ج ـ وأنَّ النصر لا يكون إلا بالمؤمنين.

٨ ـ يستعين المؤمن الصادق على نوائب الدهر بالدعاء والتوكل والإنابة.

٩ ـ الثقة في نصر الله شأن المؤمنين مهما كانت الظروف المحيطة، ومهما تكالب الأعداء، وقلَّ الناصرُ، وضَعُفَ المعين.

١٠ ـ في الآية (١٢) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الله ﷻ سيُلقي في قلوب الذين كفروا الخوف الشديد، والذِّلَّة، والصَّغار.

١١ ـ ينظر: خريطة موقع العُدوة الدنيا والقصوى، كما في الملحق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

التفسير:

١٥ ـ يا مَنْ آمنتم بالله حقَّ الإيمان، إذا لَقِيتم الكفار زاحفين نحوكم لقتالكم فلا تَفِرُّوا منهم، ولا تُوَلُّوهم ظهوركم منهزمين، بل قابِلوهم بقوة وشجاعة.

١٦ ـ ومن يُولِ الكافرين يوم لقائهم ظهره غيرَ قاصد التمكُّن من القتال، كأن يرى مكاناً أصلح، وموقفاً أفضل، ولا منحازاً إلى فئة لزيادة القوة والكَرِّ على العدوِّ؛ فقد رجع متلبِّساً بغضب شديد من الله تعالى، وأنَّ مَقَرَّه الذي سيستقر إليه في الآخرة جهنم. وبئس الموضع الذي يصير إليه ذلك المصير.

١٧ ـ فلم تقتلوهم بقوتكم وبأسكم، ولكن الله تعالى هو الذي أظفركم بحوله وقوته بأَنْ خَذَلَهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وقوَّى قلوبكم، وأمدَّكم بالملائكة، ومنحكم من معونته ورعايته ما بلَّغكم هذا النصر. وما رميت يا محمد حين رميت إلا أن الله تعالى سدَّد رَمْيك للتراب؛ وذلك أنَّ النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم أحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها، فحينئذٍ

بان فيهم الفشل والضعف فانهزموا، ثم نبَّه تعالى أنَّه قادر على نصر المؤمنين على الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكنَّ الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويُوصِلَهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً، فالله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَسْمَعُ ما أسَرَّ به العبدُ وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النِّيات، فيُقَدِّر على العباد أقداراً موافقةً لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كُلّاً بحسب نيته وعمله.

١٨ ـ ذلكم الذي منحتُه إياكم من العطاء الحسن، والإمداد بالملائكة، وإنزال الماء عليكم وإلحاق الهزيمة بالمشركين. ذلكم كله نِعَمٌ مني إليكم. ويُضاف إلى ذلك كله أني مُضْعِفٌ لكيد الكافرين، ومفسد لمكرهم بكم.

١٩ ـ ثم وَجَّه سبحانه الخطاب إلى الكافرين الذين حملهم الرُّسوخ في الكفر على أن يَدْعُوا الله أن يجعل الدائرة في بدر على أضلِّ الفريقين، فقد ورد أن كفار قريش عند خروجهم إلى بدر تَعَلَّقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدى الجُنْدَين، وأنَّ أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أيُّنا أقطع للرحم.. فأَحْنِه الغداةَ، فكان ذلك استفتاحه؛ ولذا بيَّن الله لهم بقوله: إن تطلبوا القضاء والفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم الفصل والقضاء فيما طلبتم، إذ حكم الله وقضى بينكم وبين المؤمنين، بأَنْ أعَزَّهم ونصرهم لأنهم على الحق، وخَذَلَكم وأذَلَّكم لأنكم على الباطل، فكان الأمرُ خلاف ما أرادوا.

فالخطاب للمشركين في: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ على سبيل السخرية والتهكم، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

ثم حَذَّرهم من التمادي في الباطل بعد ترغيبهم في الانقياد للحق، فقال لهم: ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلى محاربة الرسول ﷺ والمؤمنين وعداوتهم ﴿نَعُدْ﴾ عليكم بالهزيمة والذِّلَّة، وعلى المؤمنين بالنصر والعزة، ولن تستطيع جماعتكم ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أن تدفع عنكم شيئاً من تلك الهزيمة، وهذه الذلَّة.

ثم ختم الله تعالى الآية بتثبيت المؤمنين، وإلقاء الطمأنينة في نفوسهم، بأن أكَّد أنَّه مع المؤمنين بعونه وتأييده، ومن كان الله معه فهو المنصور، وإن كان ضعيفاً في العُدَّة، قليلاً عددُه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ من شأن المؤمن أن يكون شجاعاً لا جباناً، ومقبلاً غير مدبر.

٢ ـ الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر.

٣ ـ أثبت الله تعالى الرمي لرسول الله ﷺ؛ لأنَّ صورته وُجِدَتْ منه، ونفاه عنه، لأنَّ أثره الذي لا يطيقه البشر هو فِعْلُ الله ﷻ.

٤ ـ تقرير مبدأ أنَّ الله تعالى خالق كل شيء، وأنه خلق العبد وخلق فِعْلَه.

٥ ـ الكثرة والقوة لا وزنَ لهما ولا قيمة، إذا لم يكن الله مع أصحابها بعونه وتأييده.

٦ ـ مَعِيَّةُ الله تعالى للمؤمنين تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان، فإذا انتصر العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تفريطاً من المؤمنين بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه، لما هُزمت لهم راية.

٧ ـ المؤمن الصادق يَثْبُتُ في ميدان الدعوة والجهاد واثقاً بعون الله وتأييده، وأنَّه أقوى من الباطل المنتفش مهما تَسَلَّط؛ لأن المؤمن موصول بالله سبحانه وتعالى.

٨ ـ الله ﷻ يُدَبِّر للمؤمنين ويُسَدِّدهم، ويُوهن كيد الكافرين، ويُضْعِفُهم.

٩ ـ سُنَّةُ الله في النصر، والهزيمة جارية لا تَتَخَلَّف ولا تتبدَّل، والمهم أن يلتزم المؤمنون بمنهج الله، ولا ينحرفون عنه، ولا ينخدعون بغيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾

التفسير:

٢٠ ـ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، ولا تُدْبِروا عن رسول الله ﷺ مخالِفين أمْرَه ونَهْيَه

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما يُتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتَوَلِّيكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

٢١ ـ وإياكم أن تتشبَّهوا بأولئك الكافرين والمنافقين الذين ادَّعَوا السَّماع، فقالوا سمعنا، وهم لم يسمعوا سماع انتفاع، لأنَّهم لم يُصَدِّقُوا ما سمعوه، ولم يتأثروا به، بل نبذوه وراء ظهورهم.

٢٢ ـ ثم وصف سبحانه الكفار والمنافقين وأشباههم وصفاً يحمل العقلاء على النفور منهم، فقال: إنَّ شَرَّ ما دبَّ على الأرض مِنْ خَلْقِ الله عند الله الذين يَصُمُّون عن الحق؛ لئلَّا يستمعوه؛ فيعتبروا به، ويتعظوا به، ويَنْكُصون عنه إن نطقوا به، ولا يعقلون ما ينفعهم، ويُؤْثِرُونه على ما يَضُرُّهم، فهؤلاء شرٌّ عند الله من جميع الدوابِّ.

فشَبَّه الكفار بالبهائم، بل جعلهم شراً منها، وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز، إذ إن الكافر لا يسمع الحق، والبهائم لا تسمع، ولا ينطق به، والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يَضُرُّ، والبهائم لا تَضُرُّ، فكيف لا يكون شراً منها؟

٢٣ ـ ولو أنَّ الله تعالى عَلِمَ أنَّ عندهم استعداداً للإيمان ورغبةً فيما يُصْلِحُ نفوسهم وقلوبهم، لَجعلهم سامعين للحق، ومستجيبين له، ولكنه سبحانه لم يعلم فيهم شيئاً من ذلك، فحَجَبَ خيره عنهم بسبب سوء استعدادهم، فلو أسمعهم سماعَ تَفَهُّم وتَدَبُّرٍ وهم على هذه الحالة الخالية من كل خير ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ عَمَّا سمعوه من الحقِّ ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبوله جُحوداً وعِناداً.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب طاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيهما، وحرمة معصيتهما.

٢ ـ ليس الإيمان بالتمني والتحلِّي، ولكنه ما وقر في القلوب، وصَدَّقَتْه الأعمال.

٣ ـ حرمة التشبه بالمشركين والكافرين وسائر أهل الضلال، وفي كل شيء من سلوكهم واعتقاداتهم وأفعالهم السيئة.

٤ ـ بيان أنَّ من الناس مَنْ هو شرٌّ من الأنعام؛ لأنَّ الله أعطاهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه، وعدموا

بذلك الخير الكثير. فوصفهم سبحانه بالصمِّ والبُكْم مع أنهم يسمعون وينطقون؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بهذه الحواس.

٥ ـ الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا لِمَنْ لا خير فيه، وله تعالى الحكمة البالغة.

٦ ـ السعادة الحقيقية والحياة الطيبة في الاستجابة لله والرسول؛ لأنَّها تَصالُحٌ مع الفطرة، وانسجامٌ مع الكون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ
وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٤ ـ ثم وَجَّه سبحانه النداء الثالث إلى المؤمنين بما يَقْتضيه إيمانهم من الانقياد لأمره، والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه عن طواعية واختيار، وهمَّة وحسن استعداد، لأنَّ ما يدعو إليه الله ورسله فيه حياة القلب والروح، الحياة الكريمة الطيبة في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

وإياكم أن تَرُدُّوا أَمْرَ الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه، وتختلف قلوبُكم، فإنَّ الله يحول بين المرء وقلبه، يُقَلِّب القلوب حيث شاء، ويُصَرِّفها أنَّى شاء، واعلموا أنكم ستجمعون ليومٍ لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

٢٥ ـ ثم يُؤَكِّد سبحانه بعد ذلك ترهيبه لهم من التراخي في تغيير المنكر:

بأن احْذَروا أن ينزل بكم عذاب سيَعُمُّ عند نزولِه الأخيار والفجَّار، والمحسنين والمسيئين، وذلك إذا ظهر الظلمُ فلم يُغَيَّر، فإنَّ عقوبته تَعُمُّ الفاعلَ وغيره، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لِمَنْ خالف أَمْرَه، وانتهك حرماته، وتَعَرَّض لمساخطه.

٢٦ ـ ثم ذَكَّرهم الله بجانبٍ مِنْ فَضْلِه عليهم في نَصْرهم بعد الذِّلَّة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد الفقر؛ وذلك ليتنبهوا بعقولهم وقلوبهم إلى نِعَم الله، وأن يُداوموا على شكرها حتى يزيدهم سبحانه من فضله. واذْكُرُوا ـ يا معشر المؤمنين ـ وقت أن كنتم قِلَّةً مستضعفة في أرض مكة تحت سَطْوَةِ كفار قريش، أو في أرض الجزيرة العربية، تخافون أن يأخذكم أعداؤكم أخذاً سريعاً؛ لقوتهم وضعفكم، فرفع الله عنكم بفضله هذه الحال، وأبدلكم خيراً منها، بأَنْ آواكم إلى المدينة، وألَّف بين قلوبكم يا معشر المهاجرين والأنصار، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ في غزوة بدر، وقذف في قلوب أعدائكم الرعب منكم، ﴿وَرَزَقَكُم﴾ مِنَ الغنائم التي أحَلَّها لكم بعد أن كانت محرَّمَةً على الذين من قبلكم، كما رزقكم أيضاً بكثير من المطاعم والمشارب الطيبة التي لم تكن متوافرة لكم قبل ذلك، وذلك كله حتى تستمروا على طاعة الله وشكره، ولا يشغلكم عن ذلك أي شاغل، وتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

٢٧ ـ ثم وَجَّه سبحانه بعد ذلك نداءً رابعاً إلى المؤمنين: بأن ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ بتَرْكِ فرائضه وأوامره التي كَلَّفكم بها، وانتهاك حرماته التي نهى عن الاقتراب منها، ولا تخونوا الرسول ﷺ، بأن تتركوا سنته، وتُخالِفوا ما أمركم به وترتكبوا ما نهاكم عنه، ولا تخونوا ما اؤتُمِنتم عليه بأن تُفْشُوا الأسرار التي بينكم، وتنقضوا العهود التي تعاهدتم على الوفاء بها، وتُنكروا الودائع التي أودعها لديكم غيركم، وتستبيحوا ما يجب حِفْظُه من سائر الحقوق المادية، مع أنكم تعلمون سوء عاقبة الخائن لله ولرسوله، وللأمانات التي اؤتمن عليها.

٢٨ ـ ولما كان حُبُّ الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعي الإقدام على الخيانة، نَبَّه سبحانه لذلك فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ امتحان واختبار لكم من الله تعالى؛ ليتبيَّن قويُّ الإيمان من ضعيفه، فقويُّ الإيمان لا يشغله مالُه وولدُه عن طاعة الله،

وضعيف الإيمان يشغله ذلك عن طاعة الله، ويجعله يعيش حياته عبداً لأمواله، ومطيعاً لمطالب أولاده، حتى ولو كانت هذه الطاعة متنافيةً مع تعاليم دينه وآدابه.

ثم يُرَغِّب الله المؤمنين في طاعته، بعد أن حَذَّرهم من فتنة المال والولد بأنَّه سبحانه عنده أجرٌ عظيم لِمَنْ آثر طاعته ورضاه على جمع المال وحب الأولاد، فكونوا ـ أيها المؤمنون ـ من المُؤْثِرين لحب الله على حبِّ الأموال والأولاد؛ لتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة.

٢٩ ـ ثم ختم سبحانه نداءاته للمؤمنين بهذا النداء الذي يهديهم إلى سبل الخير والفلاح فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يُغْضِبُه، وتُطيعوه في السرِّ والعَلَن ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ﴾ **أولاً:** هدايةً في قلوبكم تُفَرِّقون بها بين الحق والباطل، ونصراً تَعْلُو به كلمتكم، ومَخْرَجاً من الشبهات التي تقلق النفوس، ونجاةً ممَّا تخافون. **ثانياً:** ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، أي: يسترها عليكم في الدنيا. **ثالثاً:** ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ يوم القيامة ما فَرَط منكم من ذنوب بلطفه وإحسانه. **رابعاً:** الأجر العظيم، والثواب الجزيل لِمَنِ اتقاه، وآثر رضاه على هوى نفسه. وهذا فَضْلٌ منه سبحانه فهو صاحب العطاء الجزيل، والخير العميم لِمَنْ أطاعه واتقاه، وصان نفسه عمَّا يُسخطه ويغضبه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب الاستجابة لله ورسوله بفِعْلِ الأمر وترك النهي؛ لما في ذلك من حياة للفرد والمجتمع.

٢ ـ تَعَيُّن اغتنام فرصة الخير قبل فواتها، فمتى سَنَحَتْ للمؤمن تَعَيَّنَ عليه اغتنامُها.

٣ ـ الحثُّ على أن يُكْثِرَ العبد من قول: يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك، يا مُصَرِّفَ القلوب، اصرِفْ قلبي إلى طاعتك.

٤ ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اتقاء للفتن التي يهلك فيها العادل والظالم، فإنَّ الأُمة التي تشيع فيها المعاصي والمظالم والمنكرات، ثم لا تجد مَنْ يحاربها، ويعمل على إزالتها، تستحق العقوبة

جزاءَ سكوتها واستخذائها وجُبنها، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

٥ ـ وجوب شُكْرِ النعم بحمد الله تعالى، والثناء عليه، والاعتراف بالنعمة له، والتصرف فيها حسب مرضاته.

٦ ـ جَمَعَت الآيات بين الترغيب في العمل الصالح بسرعة ونشاط، والترهيب من التكاسل والغفلة عن طاعة الله.

٧ ـ في المال والأولاد فتنة قد تحمل على خيانة الله ورسوله، فالواجب على المؤمن اتقاء خطر فتنة المال بالكسب الحلال، والإنفاق في الأوجه المشروعة. واتقاءُ خطر فتنة الأولاد يكون بتربية الأولاد على الدين والفضائل، وتجنُّبهم أسباب المعاصي والرذائل.

٨ ـ من ثمرات التقوى تكفير السيئات، وغفران الذنوب، والفرقان؛ وهو نور في القلب يُفَرِّق به المتقي بين الأمور المتشابهات التي خفي فيها وجه الحق والخير.

٩ ـ تقوى الله تَقي من المزالق، وتقيم الفرد على طريق الله ﷻ.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

التفسير:

٣٠ ـ اذكر ـ يا محمد ـ أنت وأُمتك، ما مَنَّ الله به يومَ تآمَرَ عليك صناديد المشركين، وتشاوروا في دار الندوة ليحبسوك، فيمنعوك عن تبليغ دعوتك، ويمنعوا الناس من الوصول إليك، أو يقتلوك، فيستريحوا بزعمهم منك ومما

جئت به، أو يُخرجوك من مكة، حتى تواطؤوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى، فيقتلوك قِتلة رجلٍ واحد؛ ليتفرَّقَ دمُك في القبائل، فيرضى بنو هاشم بالدِّيَة، ولا يقدروا على مقاومة سائر قريش، والحال أنَّ هؤلاء المشركين يمكرون بك وبأتباعك المكر السيئ. والله تعالى يَرُدُّ مكرهم في نحورهم، ويُحبط كيدهم، ويخيب سعيهم، فأخرج الله نبيَّه من مكة إلى المدينة لم يمسسه سوء، ومَكَّن له في الأرض ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ إذ لا يُعْتَدُّ بمكرهم مقابلَ مَكْرِه، فسبحان اللطيف بعبده، لا يغالبه مغالب.

٣١ ـ ثم ذَكَر الله بعد ذلك جُرْماً آخر من جرائم أعداء الدين الحق، وهو: أنَّ هؤلاء المشركين قد بلغ بهم الكذبُ والتمادي في الطغيان أنهم كانوا حين تتلى عليهم آيات الله ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ ما قرأته علينا يا محمد ووَعَيناه، لو أردنا ﴿لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ القرآن الذي تتلوه علينا!! وما هو إلا من قصص الأولين وحكاياتهم التي سَطَّرها بعضهم عنهم، وليس من عند ربك كما تزعم!! وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تَحَدَّاهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، وأن يستعينوا بمن استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتَبَيَّن عَجْزُهم، وقد علموا أنَّه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا رَحَلَ ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فالذي زعموه ما هو إلا من قبيل الحرب النفسية التي كانوا يَشُنُّونها على الدعوة الإسلامية، بقصد تضليل العامَّة، والوقوف في وجه تأثير القرآن في القلوب، ومحاولة طَمْسِ معالم الحق ولو إلى حين.

٣٢ ـ وتمضي الآيات في حديثها عن جرم ثالث من جرائم مشركي قريش، فتذكر مَظْهَراً عجيباً من مظاهر عنادهم، وجحودهم للحق، وقد بلغ بهم العناد والجحود أنهم لم يكتفوا بإنكار أن القرآن من عند الله، وأن محمداً قد جاءهم بالحق، بل أضافوا إلى ذلك قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ﴾ هذا الذي جاءنا به محمد من قرآن وغيره ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ المنزَّل ﴿مِنۡ عِندِكَ﴾، فعاقِبْنا على إنكاره والكفر به، بأن تُنَزِّلَ علينا ﴿حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تُهلكنا كما فَعَلْتَ بأصحاب الفيل، أو تُنْزِلَ علينا عذاباً أليماً يقضي علينا، ولم يقولوا: إن كان

هذا هو الحق فاهْدِنا له، ومرادهم ـ والعياذ بالله ـ الجزمُ بنفي كونه حقاً، وقولهم يدل على غاية العناد وكراهية الحق والنفور منه، مهما لاحت معالمه، وتَجَلَّتْ مراسمه.

٣٣ ـ وما كان الله مُريداً لتعذيب هؤلاء الذين دَعَوا بهذا الدعاء الغريب تعذيبَ استئصال وإهلاك، وأنت مقيم فيهم يا محمد بمكة، فقد جَرَتْ سُنَّتُه سبحانه ألَّا يُهْلِكَ قرية مُكَذِّبة وفيها نبيها والمؤمنون به؛ حتى يُخرجهم منها ثم يعذب الكافرين. وكذلك ما كان الله مريداً لتعذيبهم وبين أظهرهم من المؤمنين المستضعفين مَنْ يستغفر الله، وهم الذين لم يستطيعوا مغادرة مكة، والهجرة إليك في المدينة.

٣٤ ـ ثم بَيَّنَ سبحانه بعض الجرائم الأخرى التي ارتكبها المشركون، والتي تجعلهم مستحقين لعذاب الله، وأنْ لا شيءَ يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يُوجب ذلك، وهو صَدُّ الناس عن المسجد الحرام، وصَدُّ مَنْ هم أولى به منهم، فالمشركون ما كانوا يوماً من الأيام أولياء الله. وبناءً عليه فهم ليسوا أولياء لبيت الله كما يزعمون، بل لمصالحهم الشخصية وشهواتهم؛ لأنَّ أولياء الله تعالى هم المتقون الذين صانُوا أنفسهم عن الكفر، وعن الشرك، وعن كلِّ ما يُغضب الله، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك بسبب جَهْلِهم، وتماديهم في الجحود والضلال.

وقد جاءت جملة ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مُؤَكَّدة بأقوى ألوان التأكيد، لنَفْي كلِّ ولاية على البيت الحرام سوى ولايتهم هم، وتَضَمَّن بشارةً بزوال شأن المشركين عن مكة، واستخلاف الله المؤمنين عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ مشروعية التَّذْكير بنِعَمِ الله تعالى على العبد؛ ليُجَدِّدَ العبد في نفسه داعية الشكر، فيشكر.

٢ ـ في صيغة المضارع ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ لاستحضار الصورة العجيبة، من تآمُر المشركين على صاحب الرسالة ﷺ.

٣ ـ بيان موقف المشركين من الدعوة الإسلامية، وأنهم يبذلون كلَّ جهد

في سبيل إنهائها، والقضاء عليها، ولكن الله تعالى ناصر دينه، يَرُدُّ كيد الماكرين في نحورهم.

٤ ـ النفوس عندما تنغمس في الأحقاد، وتتمادى في الجحود، وتنقاد للأهواء والشهوات، وتأخذها العزة بالإثم، ترى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وتُؤْثِرُ العذاب وهي سادرة في باطلها، على الخضوع للحق والمنطق والصواب.

٥ ـ النبي ﷺ أمان أُمته من العذاب، فلم تُصَبْ هذه الأُمة بعذاب الاستئصال، ولن تصاب.

٦ ـ فضيلة الاستغفار، وأنه يُنجي من عذاب الدنيا والآخرة.

٧ ـ بيان عِظَمِ جُرْمَ مَنْ يَصُدُّ عن المسجد الحرام، وإقامة الشعائر فيه.

٨ ـ بيان أولياء الله تعالى حقيقة، والذين يحق لهم أن يَلُوا المسجد الحرام وهم المتقون.

٩ ـ إن الله تعالى يعصم أولياءه ويدحر أعداءه، فعلى الدعاة أن يمضوا في طريق ربهم غير عابئين بقلة ولا بكثرة؛ لأنَّ الله ناصرُهم ومعينهم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ
تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ
ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى
جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ
سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ
وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

التفسير:

٣٥ ـ وَصَفَ سبحانه ضرباً آخر من ضلال هؤلاء المشركين وجُحودِهم،

إذ جعل الله بيته الحرام ليُقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يَصُدُّون عنه، فلم تكن صلاتُهم عند البيت الحرام إلا تصفيقاً وتصفيراً، لا وقاراً ولا استشعاراً لحرمة البيت، ولا تعظيماً لربِّهم، ولا معرفةً بحقوقه، ولا احتراماً لأفضل البقاع وأشرفها؛ وذلك لجهلهم بما يجب عليهم نحو خالِقِهم، ولحرصهم على أن يُسيئوا إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، أو يطوف بالبيت، أو يؤدي شعائر الإسلام وعباداته، فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة، ولا تعرف حرمة بيوت الله. ومن أجل ذلك تَوَعَّدَهم اللهُ تعالى بعذابه ﴿فَذُوقُواْ﴾ أيها الضالون ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الشديد بسبب كفركم وعنادكم، واستهزائكم بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ من عند الله، فالعذاب في الدنيا بأن تُحْرَمُوا من الدخول في المسجد الحرام، والقتل، وفي الآخرة بالنار، وبئس المصير.

٣٦ ـ ثم يُبَيِّنُ الله تعالى ضرباً آخر من ألوان ضلال المشركين وعداوتهم وكيدهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وذلك أنهم يُنفقون أموالهم سعياً لأن يُبْطِلُوا الحق ويَنْصُروا الباطل، ويَصْرِفوا الناس عن طريق الله.

ثم بَيَّنَ تعالى ما سَيؤول إليه أَمْرُهم في الدنيا من الخيبة والهزيمة، بأنَّهم سينفقون هذه الأموال في الشرور والعدوان، ولكنها ستكون عليهم ندامة وخِزْياً وذُلّاً، وسيُغْلَبون، فتذهب أموالهم وما أمَّلوا، ويعذبون في الآخرة أشدَّ العذاب، فيُجْمَعُون في جهنم، ليذوقوا عذابها الدائم.

٣٧ ـ ثم بَيَّنَ سبحانه أنه فعل ما فعل من خذلان الكافرين في الدنيا، وحَشْرِهم إلى جهنم في الآخرة؛ ليتميز الفريق الخبيث وهو فريق الكافرين، من الفريق الطيب وهو فريق المؤمنين، فإذا ما تمايزوا جعل سبحانه الفريق الخبيث مُنْضَمّاً بعضُه إلى بعض، فيُلقى به في جهنم جزاءَ كُفْرِه.

٣٨ ـ وبعد كلِّ هذا التهديد والوعيد للكافرين، يُوَجِّه سبحانه خطابَه إلى نبيه ﷺ بأن يقول لهؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم، من أهل مكة وغيرهم: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عن كفرهم وعداوتهم للمؤمنين، ويؤمنوا بالله وحده ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من كُفْرِهم ومعاصيهم ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتالكم،

ويستمرُّوا في ضلالهم وكفرهم وطغيانهم، انتقمنا منهم، ونَصَرْنا المؤمنين عليهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾ عادة الله الجارية في الذين تَحَزَّبوا على الأنبياء بنصر المؤمنين عليهم، وخذلانهم، وتدميرهم.

٣٩ ـ ثم بَيَّنَ الله تعالى ما على المؤمنين تجاه أولئك الكافرين إذا ما استمرُّوا في كفرهم وعدوانهم: أَنْ قاتِلُوهم بشدة وغلظة، واستمِرُّوا في قتالهم حتى تزول صولة الشرك، وحتى تعيشوا أحراراً في مباشرة تعاليم دينكم، دون أن يجرُؤَ أحد على محاولة فتنتكم في عقيدتكم أو عبادتكم، وحتى تصيرَ كلمة الذين كفروا هي السفلى. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن كفرهم وعن معاداتكم، فكُفُّوا عنهم، وإن لم تعلموا بَواطِنَهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

٤٠ ـ وإن أعرضوا عن الإيمان، ولم ينتهوا عن الكفر والطغيان، فأيقِنوا بأنَّ الله حاميكم ومُعينكم عليهم، وثِقُوا بوِلايته ونُصْرَته، فهو سبحانه ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الذي يَتَوَلَّى عباده المؤمنين، ويحقق مصالحهم، ويُيَسِّر لهم منافعهم الدينية والدنيوية. ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالُب الأشرار. ومَنْ كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومَنْ كان الله عليه فلا عِزَّ له، ولا قائمة له.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوبُ تعظيم الله تعالى، وتعظيم شرائعه وحدوده.

٢ ـ كل نفقة ينفقها العبد للصد عن سبيل الله بأيِّ وجه من الوجوه تكون عليه حسرة عظيمة يوم القيامة.

٣ ـ من سُنَنِه تعالى أن يُمَيِّزَ الخبيث من الطيب، ويجمع الخبيث بعضه إلى بعض؛ ليطرحه في جهنم كما تُطرح النفايات أو المهملات.

٤ ـ لُطْفُ الله تعالى بعباده، وأنه لا يمنعه كفر العباد، ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يُهْلكهم من أسباب الغَيِّ والردى.

٥ ـ الحَثُّ على الإيمان، والترغيب فيه، ووجوب الاستمساك به.

٦ ـ بيان سَعة فضل الله ورحمته.

٧ ـ يغفر الله لِمَنْ أسلم كلَّ ذنب من الكفر وغيره؛ فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.

٨ ـ بيان سُنَّةِ الله في الظالمين وهي إهلاكهم، وإن طالت مدة الإمهال والإِنظار.

٩ ـ وجوب قتال المشركين على المسلمين ما بقي في الأرض مشرك يصدُّ عن سبيل الله.

١٠ ـ المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يَدْفَعَ شرَّهم عن الدين، وأن يَذُبَّ عن دين الله الذي خَلَقَ الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

١١ ـ في الآية (٣٦) إخبار عن أمر مستقبلي، وهو أن عاقبة الذين جحدوا الله، وعصوا رسوله، وأنفقوا أموالهم بالباطل ليَصُدُّوا عن سبيل الله، هي الندامةُ والحسرة؛ لأنَّ أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأمُلون به من إطفاء نور الله، والصدِّ عن سبيله. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّه سيَهزمهم المؤمنون في آخر الأمر.

١٢ ـ الله تعالى نِعْمَ المولى لِمَنْ تَوَلَّاه، ونِعْمَ النصير لِمَنْ نصره.

١٣ ـ الكفار يُنفقون أموالهم بالليل والنهار؛ ليصُدُّوا عن سبيل الله، فأَوْلَى بأهل الحق أن ينفقوا أموالهم للذَّود عن الحق، ونَشْرِ نورِ الله في العالمين.

١٤ ـ إن المواقف الصعبة هي التي تُمَحِّصُ الصف المسلم وتُنَقِّيه، وتُظْهِرُ الغَثَّ من السمين، فعلى الداعية أن يعتصم بحبل الله، ويسأل الله الثبات والعون.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى
ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ
وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِۙ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا
كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ
وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ
إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

التفسير:

٤١ ـ لما أمر الله تعالى المؤمنين بقتال الكفار بيَّن قسمة الغنائم: واعلموا ـ أيها المؤمنون ـ أنَّ ما أخذتم من مال الكفار المحاربين بقتال، فاجعلوا أوَّلاً خُمُسَه لله تعالى، يُنْفَق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة، ثم للرسول وأهل بيته، ثم ذوي القربى من أهله وعشيرته من بني هاشم وبني المطلب، ثم المحتاجين من اليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والفقراء، والغريب المنقطع به السبيل، إن كنتم آمنتم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم بدر، يوم أن جمع المسلمين والكافرين، وحصل فيه من الآيات والبراهين. والله على كل شيء قدير، وبقُدْرَتِه تعالى نَصَركم، وساق إليكم تلك الغنائم.

٤٢ ـ والأعداء في الجهة المقابلة من الوادي البعيد عن المدينة، وقافلة أبي سفيان على ساحل البحر الأحمر أسفل منكم، ولو تواعدتم معهم على القتال لاختلفتم في الميعاد، كراهة للحرب لقِلَّتكم، ولأنَّ غرض الأكثرين منهم كان إنقاذَ العِير دون القتال، ولكن تلاقيتم على غير موعد ولا رغبة في القتال؛ ليقضي الله أمراً كان في عِلْمِه وحكمته أنَّه واقعٌ لا محالة، وهو القتال المُفْضِي

إلى خِزْيهم، ونَصْرِكم عليهم، وصِدْقِ وَعْدِه لرسوله، وإظهار دينه على الدين كله ولو كره المشركون. وفَعَلَ ذلك ليترتَّبَ على قضاء هذا الأمر أن يَهْلَكَ من الكفار مَنْ هلك عن حُجَّةٍ بَيِّنة، ويعيش مَنْ يعيش من المؤمنين عن حجة عاينها، فيزداد يقيناً بالإيمان ونشاطاً في الأعمال. إنَّ الله سميع دعاء المسلمين طَلَبَ النصر، وسميع ما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر، وعليم بما يجول في خواطرهم، وبما يَصْلُح لهم في حاضرهم ومستقبلهم.

٤٣ ـ ٤٤ ـ إذ يريك الله ـ يا محمد ـ في منامك عدد العدوِّ قليلاً، فتخبر المؤمنين، وتطمئن قلوبهم، وتَقْوَى آمالهم بالنصر، ولو أراك عددَ العدوِّ كثيراً لَفَشِلَ أصحابك وخافوا، ولم يقدروا على حرب القوم، ولوقع بينهم النزاعُ وتَفَرُّقُ الآراء في أمر القتال، ولكنَّ الله سلَّمكم من الفشل والتنازع، وتفرُّق الآراء، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان. إنَّه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذي تضيق به، فتحجم عن القتال، ومن شعور الإيمان والتوكل الذي يبعث في النفس الطمأنينة والصبر، فيحملها على الإقدام، ويُسَخِّر لكل منهما الأسباب التي تُفْضِي إلى ما يريده منها، وفي الوقت الذي يريكم الله الكافرين عند التلاقي معهم عدداً قليلاً، بما أودع في قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصركم وبتثبيتكم بملائكته والاستهانة بهم، ويُقَلِّلكم في أعينهم لقِلَّتِكم بالفعل، حتى إذا ما التقيتم ثَبَّتكم، وثَبَّطهم ليقضيَ بنصركم عليهم أمراً كان في علمه مفعولاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ دَلَّ قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أنَّ خُمْسَ الغنيمة يصرف لخمسة أصناف، ودلَّ دلالة ضمنية على أنَّ أربعة الأخماس الباقية ملك للغانمين. (أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٥١).

٢ ـ ينظر: خريطة موقع غزوة بدر، كما في الملحق.

٣ ـ قال الجمهور: «سهم رسول الله ﷺ يَخْلُفُه فيه الإمام، يبدأ بنفقته ونفقة عياله بلا تقدير، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين». (التحرير والتنوير: ٩/ ١٠٧).

٤ ـ نَبَّه تعالى بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ على أنَّ أحوال الدنيا غيرُ مقصودةٍ لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكونَ زاداً ليوم المعاد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٤٥ ـ ٤٦ ـ وبعد أن ذكر سبحانه نِعَمَه على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين يوم بدر، أعقب ذلك بذِكْرِ آداب لقاء عدوهم، فقال: إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار فاثبُتوا لهم، ولا تَفِرُّوا أمامهم، وأكْثِرُوا من ذكر الله في أثناء القتال في قلوبكم بذِكْرِ قدرته ووَعْدِه بنصر رسله والمؤمنين، وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح في القتال وفي غيره، وأطيعوا رسوله كذلك، فهو المبيِّنُ لكلام ربِّه بالقول والعمل والحكم، وهو المشارك لكم في الرأي والتدبير والاستشارة في الأمور، ولا يَكُنْ منكم تَنازعٌ واختلاف، فإنَّ ذلك مَدْعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة، فيتغلب عليكم العدو، واصبروا على الشدائد، وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده، فالله مع الصابرين يَمُدُّهم بمعونته وتأييده، ومَنْ كان الله مُعيناً له فلا يغلبه غالب.

٤٧ ـ ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة، وغيرها من الأماكن التي استنفرهم منها أبو سفيان، بَطِرين بما أُوتوا من قوةٍ ونِعَمٍ لا يستحقونها، مرائين الناس بها ليعجبوا بها، ويُثنوا عليهم بالغنى

والقوة والشجاعة، وهم بخروجهم يَصُدُّون عن الإسلام بحملهم الناس على عداوة الرسول ﷺ، والإعراض عن تبليغ دعوته. والله عليم بما جاؤوا لأجله، ومن ثم فهو يجازيهم عليه في الدنيا والآخرة.

٤٨ ـ واذكر ـ أيها الرسول ـ للمؤمنين حين زَيَّنَ الشيطانُ لهؤلاء المشركين أعمالَهم بوسوسته، وألقى في رُوعهم، وخَيَّل إليهم أنَّهم لا يُغْلَبون لكثرة عَدَدَهم وعُدَدِهم، وأوهمهم أنَّه مُجير لهم، فلمَّا قَرُب كلٌّ من الفريقين المتقاتلين من الآخر، وصار بحيث يراه ويعرف حاله، وقبل أن تستعرَ نار القتال رَجَعَ خلفه، وتبرأ منهم، وأَيِسَ من حالهم، لما رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة. وختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والمراد من خوف الله تَوَقُّعُ أن يصيبه الله بضُرٍّ.

٤٩ ـ وإذ زَيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم حتى قال المنافقون ومَنْ على شاكلتهم من مرضى القلوب: ما حمل هؤلاء المؤمنين على الإقدام على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم، وكثرة عدوِّهم، إلا غرورُهم بدينهم. ومَنْ يَكِلْ أمْرَه إلى الله، ويؤمن إيمان اطمئنان بأنَّه ناصره ومعينه، وأنَّه لا يُعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء أراده، يَكْفِه ما يَهُمُّه وينصره على أعدائه، وإن كَثُرَ عددُهم، وعَظُمَ عَتادُهم؛ لأنَّه العزيز الغالِبُ على أمره، الحكيم الذي يضع كلَّ أمر في موضعه بمقتضى سُنَنِه في الكون، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب ذكر الله باللسان والجَنان.

٢ ـ وجوب الثبات عند اللقاء، وذِكْر الله والتضرع إليه، واللجوء إلى جنابه، وطاعة التوجيه الإلهي.

٣ ـ على القائد الحربي وجوبُ الأمر بالحق ومراعاة المصلحة العامة.

٤ ـ تحريم التنازع والاختلاف، والتحذير من البطر والرياء والكبر والخيلاء.

٥ ـ وجوب الصبر عند الشدائد.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ
ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

التفسير:

٥٠ ـ ٥١ ـ ولو عايَنْتَ ـ يا محمد ـ حال الكفار حين تتوفَّاهم الملائكة، فينزعون أرواحهم من أجسادهم، ضاربين وجوههم وأقفيتهم، قائلين لهم: ذُوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون، لَرأيت أمراً عظيماً يَرُدُّ الكافر عن كفره، والظالم عن ظلمه إذا هو عَلِمَ عاقبة أمره. هذا العذاب الذي ذقتموه بسبب ما كَسَبَتْ أيديكم من سيئ الأعمال في حياتكم الدنيا من كفر وظلم، وبأنَّ الله لا يظلم أحداً من عبيده، فلا يُعَذِّب أحداً منهم إلا بجُرم اجترمه، ولا يعاقبه إلا بمعصيته إياه، وقد وقع ذلك منكم، فأنتم الظالمونَ لأنفسكم فلُوموها، ولا لومَ إلا عليها.

٥٢ ـ عادة هؤلاء المشركين من قريش الذين قُتِلوا ببدر وشأنهم، كعادة قوم فرعون وشأنهم وشأن مَنْ قبلهم من الأُمم الخالية، إذ كفروا بآيات ربهم، فأخذهم بذنوبهم أَخْذَ عزيز مقتدر، ولم يظلم أحداً منهم مثقال ذرة، ونَصَرَ رُسُلَه والمؤمنين. وكما كانت سُنَّته تعالى في أولئك أَنْ أخذهم بذنوبهم، فإن سُنَّته في هؤلاء كذلك؛ فقد نصر رسوله والمؤمنين في بدر، وأهلك هؤلاء الكافرين بذنوبهم. إنَّ الله قويٌّ لا يغلبه غالب، ولا يفوته أحد، شديد العقاب لِمَن استحق عقابه، وكفر بآياته، وجَحَدَ حُجَجَه.

٥٣ ـ ذلك الذي ذُكِرَ مِنْ أَخْذِه لقريش بكفرها نِعَمَ الله عليها، كأَخْذِه للأُمم قبلهم بذنوبهم؛ فقد جَرَتْ سنة الله ألَّا يُغَيِّرَ نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة. إنَّه تعالى سميع

لما يقول مُكَذِّبو الرسل، عليم بما يأتون وما يَذَرُون، وهو مجازيهم على ما يقولون ويعملون، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٥٤ ـ شَبَّه اللهُ هؤلاء الكفار في تكذيبهم وفِعْلِهم كبائر الذنوب، بآل فرعون الذين كذَّبوا موسى عليه السلام، والسابقين لهم الذين كذَّبوا بآياتنا المنزلة، والمعجزات الدالة على وحدانية الله تعالى، فأهلكناهم بسبب كبائر ذنوبهم، وأغرقنا فرعون وقومه في البحر الأحمر. وكل هؤلاء المذكورين كانوا ظالمين لأنفسهم ولغيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ نَسَبَ ذلك إلى الأيدي، وإن كان قد يقع من الأيدي والأرجُل وسائر الحواس، أو بتدبير العقل؛ لأنَّ العادة قد جَرَتْ بأنَّ أكثر الأعمال البدنية تُزاوَل بالأيدي.

٢ ـ نِعَمُ الله على الأُمم والأفراد منوطة ابتداءً ودواماً بأخلاقٍ وصفات وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون ثابتة لهم، متمكنة منهم، كانت تلك النعم ثابتة لهم، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جُرْم، فإذا هم غَيَّروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق، وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال، غَيَّر الله حالهم، وسَلَبَ نِعْمَتَه منهم، فصار الغنيُّ فقيراً، والعزيز ذليلاً، والقوي ضعيفاً.

٣ ـ الظاهر من قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ العموم في كلِّ مَنْ أنعم الله عليه من مسلم وكافر، وبَرٍّ وفاجر، وأنَّه تعالى متى أنعم على أحدٍ فلم يشكر بَدَّله بالنعمةِ النقمةَ.

٤ ـ خَصَّ سبحانه وتعالى آل فرعون بالذِّكر، وذَكَرَ ما أُهْلِكُوا به وهو إغراقهم؛ لأنَّه انضمَّ إلى كفرهم دعوى الإلهية والرُّبوبية لغير الله تعالى، فكان ذلك أشنع الكفر وأفظعه.

٥ ـ ابتُدِئ الخبر بـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ مخاطباً به غير معين، ليَعُمَّ كل مخاطب، أي: لو ترى أيها السامع.

وإنَّما خَصَّ الوجوه والأدبار؛ لأنَّ في ضَرْبهما إذلالاً وإهانة، وليكونَ خروجُهم من الدنيا على أسوأ وداع، واستقبالهم للآخرة على أسوأ استقبال.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ
يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ
خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٥٥ ـ ٥٦ ـ إنَّ شرَّ ما يَدِبُّ على وجه الأرض في حُكْمِ الله وعدله هم الكافرون، الذين اجتمعت فيهم خصلتان: الأولى: الإصرار على الكفر والرسوخ فيه، الثانية: نقض العهد، فهم لا يتقون الله في نقض العهد.

٥٧ ـ فإنْ تُدْرِكْ هؤلاء الذين يَنْقُضُون عهدهم، وتظفر بهم في ميدان الحرب، فنَكِّلْ بهم أشدَّ التنكيل؛ حتى يكون ذلك سبباً لشرود مَنْ وراءَهم من الأعداء وتَفَرُّقِهم. لعلَّ مَنْ خلفهم من الأعداء يَذْكُرون النَّكال، فيمنعهم ذلك مِنْ نَقْضِ العهد، ومن القتال.

٥٨ ـ وإن تَوَقَّعْتَ من قوم معاهَدين خيانة ونَكْثاً للعهد بأمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها بأَنْ تَنْبِذَ إليهم عهدهم، وتنذرهم بأنك غير مقيَّدٍ به، ولا مهتم بأمرهم، بطريق واضح لا خداع فيه ولا استخفاء؛ لأنَّ الله لا يحبهم لأنَّهم مُتَّصِفُون بالخيانة، فلا تستمرَّ على عهدهم، فتكونَ معاهداً لِمَنْ لا يحبهم الله؛ ولأنَّ الله لا يحب الخائنين.

٥٩ ـ ولا يظننَّ الذين كفروا أنهم سبقونا، ونَجَوا من عاقبة خيانتهم وشَرِّهم. إنَّهم لا يعجزون الله تعالى، ولا يفوتونه بمكرهم وخيانتهم، بل هو سيجزيهم، ويُمَكِّنُ منهم في الدنيا بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم، وإذاقتهم عاقبةَ كيدهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ لَقَّبَ الله الكافرين بالدوابِّ؛ لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أضَلُّ من الحيوانات؛ لأنَّ ثمة منافعَ للحيوانات، وهؤلاء لا خير فيهم، ولا نفع منهم لغيرهم.

٢ ـ أمر الله رسوله ﷺ في المبالغة في قتل الأعداء الذين تكررت مُسالمته لهم، وتجديده لعهدهم بعد نقضه؛ لئلَّا ينخدعَ مرة أخرى بكذبهم، لِما جُبِلَ عليه من الرحمة، وحُبِّ السلم، وعَدِّ الحرب ضرورة تُترك إذا زال سببها.

٣ ـ في الآيات دلالة واضحة على وجوب المحافظة على العهود مع الأعداء، وتحريم خيانتها.

٤ ـ تساءل ابن العربي ـ يرحمه الله ـ حول آية ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ فقال: «كيف يجوز نَقْضُ العهد مع خوف الخيانة، والخوف ظنٌّ لا يقين معه، فكيف يسقط يقين العهد بظَنِّ الخيانة؟» ثم أجاب عن التساؤل، وقال: «الجواب من وجهين:

أحدهما: أن الخوف هاهنا بمعنى اليقين.

الثاني: أنه إذا ظهرت آثار الخيانة، وثبتت دلائلها، وَجَبَ نَبْذُ العهد، لئلا يُوقعَ التمادي عليه في الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هاهنا بالظن للضرورة». (أحكام القرآن: ٨/ ٨٦٠).

٥ ـ أمر الله رسوله ﷺ بالإغلاظ على العدو؛ لِما في ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه، فإنَّهم كانوا يستضعفون المسلمين، فكان في هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم؛ لأنَّهم استحقوها. وفي ذلك رحمة لغيرهم؛ لأنه يَصُدُّ أمثالهم عن النكث، ويكفي المؤمنين شرَّ الناكثين الخائنين. ولا تُخالِفُ هذه الشدةَ أنَّ الرسول ﷺ أُرْسِلَ رحمةً للعالمين؛ لأنَّ المراد أنَّه رحمة لعموم العالمين، وإن كان ذلك لا يخلو من شدةٍ على قليل منهم حين يلزم الأمر.

٦ ـ في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ رَتَّبَ نَبْذَ العهد على خوف الخيانة، دون وقوعها؛ لأنَّ شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون، وما يظهر من الأحوال، ولا يُنتظر تَحَقُّقُ وقوع الأمر المظنون؛ لأنَّه إذا تَرَيَّثَ ولاةُ الأمور في ذلك يكونون قد عَرَّضوا الأُمة للخطر، أو للتورط في غفلة وضَياعِ مصلحة، ولا تُدارُ سياسة الأُمة بما

يُدار به القضاء في الحقوق؛ لأنَّ الحقوق إذا فاتَتْ كانت تَبِعَتُها على واحدٍ، وأمكنَ تدارُكُ فائتِها، ومصالح الأُمة إذا فاتَتْ تَمَكَّنَ منها عَدُوُّها.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

التفسير:

٦٠ ـ لما أوجب الله ﷻ على رسوله ﷺ أن يُفَرِّقَ ويبدد جَمْعَ مَنْ صدر منه نَقْضُ العهد، وأن ينبذ عهد مَنْ خاف منه النقض، أَمَرَه بالإعداد في مواجهة هؤلاء الكفار، فقال: وأعِدُّوا لأعدائكم الكفار المقاتلين ما تقدرون عليه من القوة وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك مما يُعِين على قتالهم. فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تُعْمَلُ فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والمراكب البرِّيَّة والبحرية والجوية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم شرُّ أعدائهم. وأنتم بذلك تُرْهِبُون أعداءَ الله وعدوَّكم الذين يتربَّصون بكم الدوائر ـ فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين، وتأهُّبهم للجهاد، واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات، خافوهم ـ وتُرهبون به أيضاً أناساً لا تعلمون الآن عداوتهم، بل يَعْلَمهم الله وهو علَّام الغيوب. وما تنفقوا من شيء قليلاً كان أو كثيراً في إعداد المستطاع من القوة والمرابطة في سبيل الله يُعْطِكم عليه الجزاء الوافي التام، ولا يَلْحَقْكم ظلم من أعدائكم.

٦١ ـ وإن مال العدو إلى جانب السِّلْم وتَرْكِ الحرب، فاقْبَلِ السِّلْم،

وفَوِّض الأمر إلى الله، والله هو السميع لما يقولون، العليم بما يفعلون، فلا يخفى عليه ما يأتمرون به من الكيد والخداع، وإن خَفِيَ عليك.

٦٢ ـ ٦٣ ـ ولما كان طَلَبُ السِّلْم والهدنة من العدو قد يكون خديعة حربية؛ ليُغْرُوا المسلمين بالمصالحة، ثم يأخذوهم على غِرَّة، أرشد الله رسوله ﷺ إلى هذا الاحتمال، فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق فقال ﷻ: وإن يريدوا بجنوحهم للسِّلم الكيد والخداع، فالله يكفيك أمرهم، وينصرك عليهم، فإنَّ من آثار عنايته بك أن أيَّدك بتسخير المؤمنين لك، وجَعْلِهم أُمة متحدة متآلفة متعاونة على نَصْرِك، وجَمْعِهم على الإيمان بك. فلولا نعمةُ الله عليهم بأخوَّة الإيمان التي هي أقوى من أُخُوَّة الأنساب والأوطان، لَما أمكنك أن تُؤَلِّفَ بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية، ولكِنَّ اللهَ هداهم إلى الإيمان. إنه تعالى الغالب على أمره الذي لا يغلبه خداع الخادعين ولا كيد الماكرين، الحكيم في أفعاله، فينصر الحق على الباطل، ويُفَضِّلُ الجنوح للسلم، إن جنح إليها العدو دون الحرب.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب إعداد المستطاع من القوة الحربية، والمرابطة في سبيل الله، وما يقتضي ذلك من إنفاق الأموال لإعداد العُدَّة والعتاد.

٢ ـ في الآيات دليل على أن النصر يُنال بالأسباب التي من أهمها التآلف والاتحاد بفضلِ مقدِّرِ الأسباب، ورحمته بالعباد.

٣ ـ دَلَّت الوقائع على أن التآلف من أقوى وسائل التعاون وأنجعها، وأنَّ أجدى وسائل التحابِّ والتآلفِ قوةُ الإيمان.

٤ ـ دَلَّ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾ على الأمر بقَبول عقد الصلح والمهادنة أو المسالمة إن مال إليه العدو؛ لأنَّ الإسلام يُؤْثِرُ السِّلم على الحرب، ويُوجب الوفاء بالمعاهدات والمصالحات، ويُحَرِّم المبادرة إلى الغدر والخيانة، ونَقْضِ العهود.

٥ ـ عَقْدُ الصلح جائز غير لازم للمسلمين باتفاق العلماء، فيجوز نَبْذُه إذا ظهرت أمارات الخيانة والنقض والغدر.

٦ ـ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ لجماعة

المسلمين وولاة الأمر منهم؛ لأنَّ ما يُراد من الجماعة إنما يقوم بتنفيذه ولاة الأمور الذين هم وُكلاءُ الأُمة على مصالحها.

٧ ـ في قوله تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ تحريض للمسلمين على قتال أعداء الله، وأعداء رسوله ﷺ.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، فالخبر مستعمل في معنى تَعَقُّبِهم والإغراء بهم، وتعريضٌ بالامتنان على المسلمين بأنهم مَحَلُّ عناية الله، فهو يُحصي أعداءهم، ويُنَبِّههم عليهم.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مبالغة حسنة لوقوعها مع حرف (لو) الدالِّ على امتناع الوقوع.

١٠ ـ في الجمع بين الأمر بقَصْرِ التوكل على الله، والأمر بإعداد ما استطاع من القوة للعدو، دليلٌ بَيِّنٌ على أن التوكل هو من الأخذ بالأسباب، والأخذ بالأسباب يكون فيما هو من مقدور الناس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

التفسير:

٦٤ ـ يبشِّر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بأنه سبحانه كافيه كلَّ ما يهمه من أمر الأعداء وغيرهم، وهو كذلك كافٍ لِمَنْ أيَّده من المؤمنين.

٦٥ ـ وبعد أن بَشَّره بالرعاية والعناية، أمره أن يَحُثَّ المؤمنين على

القتال، ورَغَّبهم فيه؛ لدفع عدوان الكفار، إن يوجد منكم عشرون صابرون يَغْلِبُوا ـ بتأثير إيمانهم وصبرهم وفِقْهِهم ـ مئتين من الكافرين الذين جُرِّدوا من هذه الصفات الثلاث. وهذا وَعْدٌ منه تعالى وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين بعون الله وتأييده. وهم بهذا العدد يغلبونهم بسبب أنَّهم قوم لا يفقهون ما يفقهون من حكمة الحرب، وما يُراد بها من مرضاة الله ﷻ في إقامةِ سُنَنِه العادلة، وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، ومن وجوب مراعاة أحكامه وسُنَنِه بإعداد كل ما يستطاع من قوة، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة في الدنيا، أو الشهادة والسعادة في الآخرة.

٦٦ ـ وبعد أن بَيَّنَ المرتبة العليا التي ينبغي أن تكون للمؤمنين، أعقب ذلك ببيان ما دونَها من مرتبة الضعف فنسخ ما تقدَّم: فإن يكن منكم مئة صابرة، بعد أن عَلِمَ فيكم ضعفاً، يغلبوا مئتين، وإن يكن منكم ألف صابرون يغلبوا ألفين بإذن الله وقوته ومشيئته، والله مع الصابرين بالمعونة والتأييد والرعاية.

٦٧ ـ سبب النزول:

عن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عن عمر قال: «. . .فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الأُسَارَى»؟. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «يَا نَبِيَّ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلام». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا بْنَ الْخَطَّابِ»؟. قُلْتُ: لا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا، فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيّاً مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلانٍ ـ نَسِيباً لِعُمَرَ ـ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ

الشَّجَرَةِ». شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ. (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير: باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، برقم ١٧٦٣ (٣/ ١٣٨٣).

التفسير:

ما كان من شأن نبيٍّ من الأنبياء ولا من سُنَّتِه في الحرب، أن يكون له أسرى، يتردَّد أمرُه فيهم بين المنِّ والفداء إلا بعد أن يَعْظُمَ شأنُه فيها، ويتمَّ له الغلب والقوة بقَتْلِ أعدائه. تريدون عَرَضَ الدنيا الفاني الزائل وهو المال الذي تأخذونه من الأسرى فداءً لهم، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقي بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه ما دمتم تعملون بها. والله كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لَفَعَلَ، لكنه حكيم، يبتلي بعضكم ببعض.

٦٨ ـ لولا كتابٌ من الله سبق في عِلْمِه الأزلي ألَّا يُعَذِّبَكم والرسولُ ﷺ فيكم، وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم، لَمسَّكم ـ بسبب ما أخذتم من الفداء ـ عذاب عظيم.

٦٩ ـ فكُلوا ممَّا غَنِمْتُم من الفِدْية حالَ كونه حلالاً بإحلاله لكم، طيباً في نفسه، لا خبث فيه مما حُرِّم لذاته كالدم ولحم الخنزير. واتَّقُوا اللهَ في أن تعودوا إلى أكْلِ شيء من أموال الناس كفاراً كانوا أو مؤمنين، من قبل أن يُحِلَّه لكم ربُّكم. إنه غفور لذنبكم، رحيم بكم، إذ أباح لكم ما أخذتم، وأباح لكم الانتفاع به.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ من سُنَنِ الله في الغَلَبة أن يكون للصابرين على غيرهم. وفي هذا تحذير للمؤمنين أن يَغْتَرُّوا بدينهم، ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضي النصر والغلب، وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله. ومن أهمها وأعظمها الصبر والعلم بحقائق الأمور، ومعرفة سنن الله في خلقه.

٢ ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَعْدٌ من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء، إذا أتوا بالسبب

الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمَّهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلَّفُ الكفاية بتخَلُّف شرطها.

٣ ـ لم يكن فِعْلُ النبي ﷺ في حكم الأسرى إلا اجتهاداً واختياراً لأحد أمرَين مشروعَين: هما القتل، وأَخْذُ الفداء. فهو فِعْلُ خلافِ الأَولى، وليس في ذلك مِساس أصلاً بعصمة الأنبياء عليهم السلام؛ لأنَّ المِساس بالعِصْمَةِ يحصل إذا خالف النبي نصاً صريحاً، أو أمراً قائماً.

٤ ـ استنبط ابن العربي ـ يرحمه الله ـ من قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ بأنَّ الآية دليل على أن العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراماً، مما هو في علم الله حلال: أنه لا عقوبة عليه. (أحكام القرآن: ٢/ ٨٧٢).

٥ ـ تقرير النسخ في القرآن الكريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾

٧٠ ـ ٧١ ـ سبب النزول:

روى الطبراني بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ [الأنفال: ٧٠] حَتَّى بَلَغَ ﴿أُخِذَ مِنكُمۡ﴾، قَالَ: كَانَ

الْعَبَّاسُ يَقُولُ: فِيَّ وَاللهِ أُنْزِلَتْ حِينَ أَخْبَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ إِسْلامِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يُحاسِبَنِي بِالْعِشْرِينَ أُوقِيَّةً الَّتِي وَجَدَ مَعِي فَأَبَى أَنْ يُحاسِبَنِي بِهَا فَأَعْطَانِي اللهُ بِالْعِشْرِينَ أُوقِيَّةً عِشْرِينَ عَبْداً كُلُّهُمْ تَاجَرَ بِمَالِي فِي يَدِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللهِ.

(المعجم الكبير للطبراني: ١١٢٣٥، ولباب النقول، ١/ ١١٤).

التفسير:

لما أخذ الرسول ﷺ الفداء من الأسرى شَقَّ عليهم أَخْذُ أموالهم، فلقَّنه الله ما يستميلهم، ويُرَغِّبهم في الإسلام، فقال ﷻ مخاطباً رسوله ﷺ: قل للذين في أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء: إن كان الله تعالى يعلم أنَّ في قلوبكم إيماناً، يعطكم إذ تُسْلِمُون ما هو خير لكم، ممَّا أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم في المغانم وغيرها من النِّعم التي وُعِدَ المؤمنون بها، ويغفر لكم ما كان من الشرك، وما استتبعه من السيئات والأوزار. والله غفور لِمَنْ تاب من كفره وذنوبه، رحيم بالمؤمنين فيشملهم بعنايته وتوفيقه، ويَعُدُّهم للسعادة في الدنيا والآخرة. وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى السِّلْم، فلا تَخَفْ ممَّا عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال، فإنَّهم قد خانوا الله من قبل، فنقضوا الميثاق الذي أخذه على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية، وبما آتاهم من العقل الذي يَتَدَبَّرون به سُنَنَ اللهِ في خَلْقِه، فمَكَّنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم ببدر، مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم، وعددك وعددهم، وهكذا سيُمَكِّنُك ممَّنْ يخونونك من بعد. والله يعلم ما ينوونه، وما يستحقونه من عقاب، حكيم يفعل ما يفعل بحسب ما تقتضيه حِكْمَتُه البالغة، فينصر المؤمنين، ويُظْهِرُهم على الكافرين.

٧٢ ـ وبعد أن ذكر ما يجب أن يعمل مع الأسرى، ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض، بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك، وولاية الكافرين بعضِهم لبعض، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار، ما دام العهد محفوظاً غير منبوذ ولا منكوث، فقال: هؤلاء هم المؤمنون الذين هجروا أوطانهم فراراً بدينهم من فتنة المشركين؛ إرضاءً لربِّهم، ونصراً

لرسوله ﷺ، وبذلوا الجهد بقدر الوسع، واقتحموا المشاقَّ، والذين آوَوا الرسول ومَنْ هاجر من أصحابه ونصروهم، وأَمَّنوهم من المخاوف، وأشركوهم في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، وقاتلوا مَنْ قاتلهم، وعادَوا مَنْ عاداهم. أولئك يَتَوَلَّى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولَّونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر في القتال، وما يتعلق به من الغنائم.

وإن المؤمنين المقيمين في أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم، ودارُهم دار حرب وشرك، لا يثبت لهم شيء من ولاية المؤمنين الذين في دار الإسلام، إذ لا سبيلَ إلى نصر أولئك لهم، وإنه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار، أو اضطهدوهم لأجل دينهم، وطلبوا نَصْرَكم عليهم، فعليكم أن تُساعِدُوهم بشرط أن يكون الكفار حربيِّين، لا عهدَ بينكم وبينهم، أمَّا إن كانوا معاهدين فيجب الوفاء بعهدهم، ولا تُباح خيانتهم، والغدر بهم بنقض العهود والمواثيق. واللهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، فعليكم أن تقفوا عند حدوده، وأن تراقبوه وتتذكروا اطلاعه على أعمالكم، وتَتَوَخَّوا فيها الحق والعدل، وتتقوا الهوى الذي يَصُدُّ عن ذلك.

٧٣ ـ ولما عقد ﷻ الولاية بين المؤمنين، أخبر أنَّ الكفار حيث جمعهم الكفر، فبعضهم أولياء لبعض، فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين. وإن كانوا شيعاً يعادي بعضهم بعضاً، وإن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض، ومن تناصُرِكم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضي عهدهم وينبذوه على سواء، يَقَعْ من الفتنة والفساد في الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذي يُفْضِي إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم، وتعطيل كثير من مقاصد الشرع التي لا تتحقق إلا بالتعاون والتناصر.

٧٤ ـ وبعد أن ذكر عَقْدَ الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار، أعقب ذلك بمَدْحِهم والثناء عليهم، فقال ﷻ: هؤلاء المهاجرون والأنصار هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، دون مَنْ لم يهاجر وأقام بدار الشرك، ولم يَغْزُ مع المسلمين عَدُوَّهم، ثم وعدهم بحسن العاقبة فقال: لهم مغفرة تامة من ربِّهم تمحو ما فرط منهم من السيئات، ورزق كريم في دار الجزاء؛ لأنهم قد

تركوا الأهل والوطن، وبذلوا النفس والمال، وأعرضوا عن سائر اللَّذَّات الجسمانية، وعَمِلُوا ما يُقَرِّبهم من ربِّهم في دار النعيم.

٧٥ ـ سبب النزول:

عن ابن الزبير رضي الله عنه قال: كَانَ الرَّجُلُ يُعَاقِدُ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: تَرِثُنِي وَأَرِثُكَ، فنزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾. (لباب النقول: ١/ ١١٥).

التفسير:

والذين تأخَّر إيمانُهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى، وهاجروا وجاهدوا معكم أعداءكم، فأولئك منكم، أي: فيلتحقون بالمهاجرين الأوَّلين والأنصار، وبما تَقَدَّم من الولاية والجزاء، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتعاون والتناصر، وبالتوارث في دار الهجرة في ذلك العهد وفي كل عهد، في حكم الله الذي كتبه على عباده المؤمنين، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذي القربى. والله سبحانه إنَّما شرع لكم هذه الأحكام في الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ ينبغي للمؤمنين ترغيب الأسرى في الإيمان، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر، وعادوا إلى البغي والعدوان.

٢ ـ في الآيات بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين أعدائهم، ما داموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية.

٣ ـ مَنْ أَسَرَه الكفار من دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار، ويجب على المسلمين السَّعْيُ في فكاكه، بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذِّمة أيضاً.

٤ ـ ثبوت ولاية النصرة بين مؤمني دار الإسلام، وبيان فضل المهاجرين السابقين على اللاحقين، وفضل المهاجرين على الأنصار، وجعل المتأخرين في الإيمان والهجرة بمنزلة المتقدمين في تضامنهم معهم.

٥ ـ ثبوت ولاية النصرة بين مؤمني دار الإسلام ومؤمني دار الحرب، في حال مقاتلتهم أو اضطهاد الكفار لهم، إلا إذا كان بينهما ميثاق صلح وسلام، فلا تمكن مناصرتهم. وفيما عدا حالة المقاتلة لا تثبت ولاية النصرة بين المسلمين في دار الإسلام، والمسلمين في دار الحرب.

٦ ـ تقديس الوفاء بالعهود والمواثيق في شرعة الإسلام، وإن مس ذلك مصلحة بعض المسلمين.

٧ ـ الكفار بعضهم أولياء بعض، أي: نصراء وأعوان.

٨ ـ إذا لم نحقق ولاية النصرة بيننا، ووالَينا الكفار، أدَّى ذلك إلى ضَعْفِنا، وقوتهم علينا.

٩ ـ اسم الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ لإفادة الاهتمام بتمييزهم للإخبار عنهم، وللتعريض بالتعظيم لشأنهم.

١٠ ـ الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾ استثناء من متعلق النصر، وهو المنصور عليهم. ووجه ذلك أنَّ الميثاق يقتضي عدم قتالهم، إلا إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين، وعهدهم مع المسلمين لا يتعلق إلا بالمسلمين المتميزين بجماعة ووطن واحد، وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، فأما المسلمون الذين أسلموا ولم يهاجروا من دار الشرك فلا يتحمل المسلمون تَبِعاتِهم.

١١ ـ في الآيتين (٧٢) و(٧٣) إخبار عن أمر مستقبلي بأن المؤمنين إذا لم يتولَّ بعضهم بعضاً فإن العاقبة وقوع الفتن، وانتشار الفساد.

١٢ ـ تقييد أولوية أولي الأرحام بأنها في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ﴾؛ للدلالة على أنَّ ذلك حكمٌ فِطْري قدَّره الله، وأثبته بما وضع في الناس من الميل إلى أقربائهم.